وقد علمنا من ناظم هذه الابيات انهُ علق عليها شرحاً مسهباً بعد ان درس اللغة اليونانية الاصلية وطالع كل الشروح التي وضعها علماء الافرنج على اشعار هوميروس وقرأ مئات من الدواوين العربية والافرنجية ليرى المعاني التي ذكرها هوميروس ووردت في اشعار غيره من الشعراء. وسيطبع هذا الديوان الكبير مع ما علقهُ عليهِ من الشروح وضع لهُ من الصور الكثيرة ويتحف بهِ اللغة العربية وابناءها تنزول عنا وصمة عار لحقتنا منذ الف عام وهي ان العرب مع اعتنائهم بفلسفة اليونان وعلومهم واهتمامهم بالشعر والشعراء لم يقدموا على ترجمة اشعار هوميروس اما لانهم لم يفهموا معانيها او لانهم لم يقدروها قدرها.

الاشباه والنظائر

كتبنا في الجزء الخامس من المجلد التاسع عشر من المقتطف مقالة في هذا الموضوع وعدنا فيها ان نعود اليهِ مرة اخرى. وقد طالبنا البعض بالوعد مراراً فرأينا ان نلبي الطلب الآن

الانسان ابن العادة والعادات تحاكي الناس وتغير الطباع وقد يُظَنُّ لاول وهلة انها خاصة بالانسان وليس الامر كذلك بل تشبههُ فيها الحيوانات والنباتات كما ترى من الامثلة التالية

كل من رأى فأرة يعلم انها من اسرع الحيوانات عدواً واشدها نفاراً تراها في جانب من البيت فلا يقع نظرك عليها حتى تصل الى الجانب الآخر كأنها البرق يومض فيخطف الابصار. ولا نظن ان احداً حاول ان يمسك فارة فاستطاع مسكها بيده. وبالامس احدث سيدة اميركية فارتين من الفيران البيض الى ابنة صغيرة وهي تلعب بهما الآن امامنا فلا تهربان منها بل تقيمان في يدها وتدخلان في جيبها وقميصها بجانبها متثاقلتين كانهما من اشد الحيوانات انساً وابطأها حركة ولم نرَ هرة آنس منهما

والهرُّ الاهلي يُضرب بهِ المثل في الانس ولكنهُ والوحشي اخوان وهذا من اشرس الحيوانات واشدها نفاراً. واذا رُبي جرو الهر الاهلي بعيداً عن الناس عاد وحشياً كالوحشي

اذهب الى معرض الحيوانات في حديقة الجيزة وانظر الى الببر (النمر المخطط) رابضاً والشرر يتطاير من عينيهِ وهو يفغر فاهُ ويزبدُ كلما ضرب الحارس الارض يدهِ وبجانبهِ ابران صغيران من نوعهِ والحارس يدخل اليهما ويلاعبهما كأنهما هرتين اليفتين. وقد

يعودان الى طباعهما الاولى لان الطباع لا تتغير حالاً ولكن اذا تكرّر ذلك على نسلهما في اعقاب كثيرة صار اليفاً كالنقط

وقد يستفيد الحيوان الحذر من الانسان اذا كان الانسان يتعقبهُ ويصطادهُ كما ترى في العصفور (الدوري) فانهُ صار من اشد الطيور حذراً حتى ان المرأة تعجز عن صيدهِ

ويظهر بادئ بدء ان العادة يستحيل ان تنقل بالنبات فعلها بالحيوان . وليس الامر كذلك فان النبات يتغير بتغير الاقاليم فاذا نقل الى بلاد لا يناسبهُ اقليمها فلا يحسن فيها ثم تكرّر زرعهُ والاعتناء بهِ تغير طبعهُ وصار الاقليم مناسباً لهُ

والواسطة الكبرى لترسيخ العادات الجديدة في الوراثة فهي متسلطة على النبات والحيوان تسلطها على الانسان لانها سنة طبيعية عامة وعليها مدار ما يرسخ في الطباع من الاختلاف الذي يجعل النباتات والحيوانات صالحة للاقاليم التي توجد فيها وللاحوال المحيطة بها

ولا مشاحة في ان الانسان سيد المخلوقات الارضية ولكن يظهر لذي امعان النظر ان ليس فيهِ صفة الاَّ وفي بعض الحيوانات شيء منها فهي تحزن وتفرح وتغضب وترضى وتفكر وتستدل وتكرم وتنتقم مثل الانسان والفرق بينهما في الكم لا في الكيف من حيث القبيل . واذا امتازت بالشراسة احياناً فالانسان قد يكون اشرس منها احياناً كثيرة . الخ وسمك العصفور ويزقهُ تمزيقاً ولكن حالما يقبض عليهِ يذعنهُ او يميتهُ فيفقد الحس ولا يشعر بالالم ولو تمزق جسمهُ ارباً ارباً . وبالامس قبض اللصوص على رجل فجعلوا يقطعون قطعاً من لحمهِ ويطعمونهُ اياها وهو حيٌّ بين ايديهم شراسة لم يعمل اليها اشرس الضواري ولا افتك الكواسر

وهذه الشراسة تشمل النبات ايضاً . وقد يظهر هذا الكلام غريباً على من لم يسمعهُ قبلاً ولكنهُ حقٌّ لا ريب فيهِ فان بعض انواع النبات يصطاد الحيوان صيداً ويقتاتهُ لحمهِ ولا نعني بذلك الرواية الخرافية التي اشاعها بعض العجم مثل بضع عشرة سنة وهي ان نوعاً من النبات الذي ينتدي بالحمر ربَّاهُ احد العلماء وكان يطعمهُ نفخذ لحم كل يوم واتفق مرة ان قبض على ذراع ذلك العالم والتهمها وكاد يلتهمهُ كلهُ . بل نعني ان كثيراً من النباتات التي تصطاد الحشرات اذا وقعت عليها وتفرز مادة تهضم لحمها كأنها من الحيوانات المفترسة وتتذرع الى ذلك بذرائع كثيرة من حيث اللون والطعم حتى تغري الحشرات بالوقوع في شراكها

وعلى ذكر الاغراء نقول ان التزين والتحلي والتعطر ليست خاصة بنوع الانسان بل تشاركهُ فيها الحيوانات والنباتات . وما أبرع الازهار وبهاء الوانها وبديع اشكالها في ذرائع لاغراء الحشرات حتى تقع عليها وتزوجها بعضها ببعض فهنَّ عرائس يتزين ويتعطرن في

فصل المزاوجة لإختلاف النسل وتكثير النوع وهذا شأن كثير من الطيور والحيوانات ولا سيما ما يتزوق منها و يتفرّد في فصل المزاوجة

وكما ترحّب النباتات ببعض الحشرات وتجتذبها اليها برسائل مختلفة جلباً لنفعها تنفر من غيرها وتدفعها عنها برسائل كثيرة دفعاً لضرها . وما الشوك والحسك اللذان تستحيل اليهما الاوراق والاغصان سوى اسلحة يدافع بها النبات عن نفسه و يبعد بها الجداءة . بل ان جساءة القشر وصلابة الجوز وحرارة البزر وحموضة الثمر كل ذلك دروع واسلحة يتقي بها النبات شرّ الحيوان فان كان الانسان يتسلّح بالحراب والسهام و يلبس الدرع والخوذة فالنباتات تتسلّح باسلحة مثل هذه بل بعضها يقذف مواد مختلفة دفاعاً عن نفسه كما يقذف الانسان البنادق والقنابل

وتسلّح الحيوانات بالانياب والبراثن والمناسر والمخالب وتدرّعها بالدروع المتينة كالسلحفاة والقنفذ لما تعمي به عدوها كالاخطبوط كل ذلك معروف مشهور . فالاحياء كلها متشابهة في دفاعها عن نفسها ولو اختلفت طرق الدفاع شكلاً ونوعاً

والانسان شديد الشعور لكن بعض الحيوانات اشد شعوراً منهُ فالمعزى تشعر بتغير الهواء ودنو المطر قبل الانسان وورق البنط يميز بين النور والظلمة وبعض الازهار يدور مع الشمس وبعض النباتات يتجه الى الشمال والجنوب وبعضها يشعر برطوبة الهواء و يدلُّ عليها وبعض الطيور يقطع من سيبيريا الى بلاد السودان شتاء ومن بلاد السودان الى سيبيريا صيفاً هرباً من البرد والحر فهو مثل اشد الانكليز والاميركان ترفّهاً . واذا كانت الطيور قاطعة فوق البحر وتعب واحد منها نقد تحملهُ على مناكبها لكي لا يقع في البحر و يغرق . ولبعضها قواد تقودها وحرّاس تحرسها كما هو مشهور في اللقالق والكراكي

والانسان يبني البيوت والقصور و يتقي بها حرّ النهار و برد الليل لكنهُ لم يكن يفعل ذلك حينما كان في حال البداوة بل كان يكتفي بغار يحفرهُ في الارض كالفوص القطا او بجيمة ينيها من اغصان الاشجار كعرزال الاسد . والعجاوات مثلهُ من هذا القبيل وبعضها فائقٌ اتقاناً كما ترى في صورة هذا الطائر وعشهِ على الصفحة التالية ولعلهُ النوّط الذي ذكرهُ علماء العرب . والنظر الى عشهِ والفان حيكهِ يغني عن اطالة الشرح في ما بلغهُ من المهارة في حيك القصب والالياف بعضها ببعض حتى تصير مأوى امينا لفراخهِ وحتى اذا عصفت الرياح بالقصب فامالتهُ لا يقع البيض من العش لعمق قاعهِ

ولكل نوع من انواع الطير اسلوب خاص لبناء عشهِ بعضهُ يبنيهِ من الالياف كهذا

الطائر وبعضهُ من القش كاكثر العصافير وبعضهُ من العيدان كالنسر وبعضهُ من الطين كالسنونو وقد يستخدم المصنوعات الحديثة كما اذا كثرت خيوط الحرير في بلادهم فكل فيها او الاسلاك المعدنية الدقيقة. وكلهُ يبطن عشهُ بالريش الناعم لكي يكون مرقدًا وثيرًا لفراخهِ

ويمكن ان تطيل الكلام في هذا الموضوع فتملأ صفحات كثيرة من الاشباه والنظائر بين الانسان والحيوان والنبات بل بين الحيوان والجماد ايضًا لان الحيوان والنبات ليسا الا جمادًا

ظهرت فيهِ القوى الكامنة في الجماد. ولقد ادرك هذا المعنى ابو العلاء المعرّي حيث قال

والذي حارت البرية فيهِ حيوان مستحدث من جماد

لكن الجماد يذخر القوى الطبيعية والنبات والحيوان يبددانها. وكل ما في الكون يدل على وحدة الخالق ووحدة الخلق